

الأسس الفلسفية للفكر التربوي عند القاضي عبد الجبار وتطبيقاتها

صالح سلامة محمود البركات

١ - المقدمة:

تُعد الفلسفة التربوية من أهم مدخلات النظام التربوي التي تسهم في تحديد معالمه وأهدافه، وتساعد على تقييم أدائه وفعاليته، ومن خلال فلسفة التربية تبدأ حركات الإصلاح والتطوير لأيّ نظام تربوي^(١). وينظر إلى فلسفة التربية باعتبارها نقطة البداية في العملية التربوية والركيزة الأولى الأساسية التي تركز عليها بقية الجوانب التربوية الأخرى من أهداف تربوية ومناهج دراسية وطرق تدريس وتقويم ووسائل تعليمية.

وتعتبر التربية والنظام التعليمي بكل مكوناته جزءاً من ثقافة أمة، كما أنه أداة فعّالة لتخليد وتطوير وتجديد حضارة، وثقافة الأمة، فالأمة التي تريد أن تحافظ على كيانها وعلى شخصيتها الحضارية والثقافية، لا بد أن تربط تعليمها بثقافتها وحضارتها، وتحرص على أصالتها، وتربط حاضرها بماضيها. والتراث مبعث آمال الأمة ومُلهم مشاعرها وعنوان تقدمها، والانقطاع عنه يؤدي إلى هدم الأساس الذي تقوم عليه حضارتها^(٢).

لذلك فإن اهتمام أي أمة بتراثها هو بمثابة الاهتمام بكيانها ومصيرها فإذا ما تهاونت في حماية ثقافتها وتراثها فإن مآلها الاندثار والضياع، فكم من أمم زالت وضعفت، عندما اندمجت في ثقافات تلك الأمم، وتهاونت في حماية تراثها^(٣). ومن المعلوم أن تراثنا العربي الإسلامي من أغنى التراث العالمي.

١ - محمد حسان، دراسات في فلسفة التربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ١١.

٢ - عمر محمد الشيباني، من أسس التربية الإسلامية، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع، ليبيا، ١٩٧٩م.

٣ - عاكف يوسف صوفان، التحدي الثقافي والإعلامي، مكتب التربية لدول الخليج، مسقط، عمان، ١٩٨٧م، ص ١٥.

وتتبع أهمية هذا التراث من أنه يمثل الإطار الذي يحدد للعرب والمسلمين هوية متميزة، ويمثل الخلفية الفكرية لتصوراتهم لمجالات الحياة كافة، ويرتكز على أسس إسلامية راسخة، ولا يستطيع أحد من المرين والمؤرخين أن ينكر دور علماء المسلمين في الفكر التربوي الإسلامي والعربي والعالمي؛ لذلك فإن العودة إلى المنابع الأصيلة وخاصة في المجال التربوي ضرورة أساسية لنهضة الأمة وتقديمها.

فإذا ما أرادت الأمة العربية والإسلامية أن تستعيد أمجادها وحضارتها، ما عليها إلا أن توجه دراساتها إلى ما ترك السلف الصالح من علماء الأمة، والذين كان لهم الدور والأثر الكبير في توحيد الأمة وقوتها وعزتها وكرامتها. لهذا جاءت هذه الدراسة بالرغم من الاختلاف في الاجتهادات والمواقف، لأن هذا يمثل ظاهرة طبيعية وسليمة.

وهذه الدراسة تقدم الجوانب التربوية لأحد علماء الأمة البارزين وهو القاضي عبد الجبار بن أحمد بن خليل بن عبد الله الهمداني الذي ولد حوالي ٣٢٥هـ/٩٣٦م والذي اتفقت كلمة القدماء والمحدثين على أنه من أشهر العلماء والفلاسفة في عصره وهو شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، ومن كبار فقهاء الشافعية، وقد ترك عددا كبيرا من المؤلفات بلغت في مجملها تسعة وستين مؤلفاً، منها شرح الأصول الخمسة، كتاب ضخمة ساء المغني، وله في مجال التفسير وعلوم القرآن الأدلة في علوم القرآن، وبيان التشابه في القرآن، والتفسير الكبير، والتفسير المحيط، وتنزيه القرآن عن المطاعن، وفي مجال الحديث والسيرة نظم الفوائد وتقريب المراد للرائد، وتثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد، وفي مجال الوعظ والإرشاد آداب القرآن، نصيحة المثقفة، وفي مجال أصول الفقه الاختلاف في أصول الفقه، أصول الفقه، شرح العمدة، العمدة، مجموع العهد، النهاية، وله الاختبارات في كتب الفقه الشافعي، وتكملة الجوامع، تكملة الشرح، تهذيب الشرح، المجمل، جوابات مسائل ابن رشد وغيرها الكثير من المؤلفات^(٤).

٢-١: مشكلة الدراسة:

يزخر التراث العربي الإسلامي بنصوص وآراء محكمة وقيمة وإبداعية في مجالات العلوم بشكل عام والمجال التربوي بشكل خاص، فقد عني علماء الأمة بوضع القواعد التربوية الصحيحة وبلورتها بصورة علمية تنسجم مع الحقائق والأسس الفلسفية والتربوية المعاصرة، ورغم الجهود التي بذلت وتبذل في مجال البحث بالتراث التربوي الإسلامي إلا أن هناك ندرة بحسب علم البحث في الدراسات التي

٤- عبد الكريم عثمان، قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م،

تناولت الفكر التربوي عند القاضي عبد الجبار الهمداني على الرغم من تنوع وخصوبة وعظمة النتاج الفكري والتربوي لديه في مجالات العلوم التربوية، وبناء على ذلك يحاول الباحث تسليط الضوء على نموذج فكري وتربوي ممثل بأراء القاضي عبد الجبار الهمداني التربوية في مجالات النظرة إلى الذات الإلهية، وطبيعة الكون، والطبيعة الإنسانية والتطبيقات التربوية لهذه المجالات.

٣-١ : أسئلة الدراسة:

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

س١) ما هي الأسس الفكرية للفكر التربوي عند القاضي عبد الجبار الهمداني في مجالات: الذات الإلهية، وطبيعة الكون، والطبيعة الإنسانية؟

س٢) ما هي التطبيقات التربوية للفكر التربوي لدى القاضي عبد الجبار الهمداني في المجالات التربوية التالية: الأهداف التربوية، المتعلم، المعلم، المنهج، طرق التدريس، الإبداع والموهبة؟

٤-١ : أهمية الدراسة:

تتبع أهمية هذه الدراسة من الاعتبارات التالية:

١- إن القاضي الهمداني يعتبر عالماً بارزاً من أعلام الفكر الإسلامي، أدى دوراً مهماً وواضحاً في الفكر التربوي الإسلامي في عصره، لا يقل أهمية عن دور أي من مفكري التربية المعاصرين.

٢- تمثل هذه الدراسة إسهاماً تربوياً وفكرياً وبصورة معاصرة تسهل على الباحثين فهم الفكر التربوي لدى القاضي عبد الجبار بسهولة ويسر مما يثير الدافعية لدى الباحثين للبحث والتنقيب في التراث العربي الإسلامي عن الأصول النظرية والتطبيقية لفكر الأمة.

٣- إبراز دور العلماء المسلمين، وما قدموه من نظريات معرفية وتربوية، فهناك الكثير ممن لا يعرف القاضي عبد الجبار والدور الحقيقي الذي قام به في التاريخ الإسلامي والدفاع عن الإسلام.

٤- إن جمع أفكار القاضي الهمداني التربوية، من خلال مؤلفاته، يساعد في التعرف على الجوانب التربوية في فكره والإفادة منها في مجال التربية والتعليم بما يتفق مع التصور الإسلامي.

٥- إن دراسة الفكر التربوي لدى القاضي الهمداني وغيره من العلماء تعني التواصل والتأصيل للفكر التربوي العربي الإسلامي في مواجهة ما تعانيه الأمة من تبعية فكرية نتيجة الغزو الثقافي الغربي الذي أدى إلى تكوين أجيال لا تعرف أبرز علماء الأمة فضلاً عن فكرهم التربوي.

٦- إن مثل هذه الدراسات عمل مطلوب لغربلة التراث الإسلامي وتنقيته من الشوائب التي

علقت به، وتأکید الصحيح منه وبلورته، لا بهدف التعرف عليه فقط، بل من أجل دمج المفيد منه في الواقع المعاش.

٥-١ : أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى:

١- التعرف على الأسس الفكرية لدى القاضي عبد الجبار الهمذاني في مجالات الذات الإلهية، وطبيعة الكون، والطبيعة الإنسانية.

٢- التعرف على التطبيقات التربوية للفكر التربوي لدى القاضي عبد الجبار في العملية التعليمية في مجالات العلم، والمتعلم، والمعلم، والمنهج، وطرق التدريس، والإبداع والموهبة.

٣- التعرف على إسهامات القاضي عبد الجبار في مجال تنمية الإبداع والموهبة.

٦-١ : حدود الدراسة:

اقتصرت الدراسة على الآراء والأفكار التي خلفها القاضي عبد الجبار بن أحمد بن خليل بن عبد الله الهمذاني والتي وردت في مؤلفاته التالية: تثبيت دلائل النبوة، شرح الأصول الخمسة، طبقات المعتزلة، فضل الاعتزال، المحيط بالتكليف، المختصر في أصول الدين، المغني في أبواب التوحيد والعدل.

٧-١ : التعريفات الإجرائية:

تتمثل التعريفات الإجرائية في هذه الدراسة بالمفاهيم الرئيسية التالية:

أولاً: الأسس الفكرية: هي نظرة القاضي عبد الجبار إلى الذات الإلهية، والكون، والطبيعة الإنسانية.

ثانياً: التطبيقات التربوية: هي وجهة نظر القاضي عبد الجبار عن الأهداف التربوية، والمعلم، والمتعلم، والمنهج الدراسي، وطرائق التدريس، وتنمية الإبداع.

٢- الدراسات السابقة:

اطلع الباحث على عدد من الدراسات التي تناولت موضوع الفكر التربوي العربي الإسلامي عند العلماء المسلمين وقد استفاد منها في مجال دراسته ويمكن عرض هذه الدراسات وفق تسلسلها الزمني:

أولاً: دراسة قام بها ناصر ١٩٧٧م^(٥) بعنوان: الفكر التربوي العربي الإسلامي، قدم فيها تعريفاً بمجموعة من المربين المسلمين مثل: ابن سحنون، والفارابي، والقاسبي، وابن مسكويه، وإخوان الصفا، وابن سينا، والغزالي، وابن جماعة، وابن خلدون. وتطرقت الدراسة إلى التعريف بأشهر مؤلفات هؤلاء

٥- محمد ناصر، الفكر التربوي العربي الإسلامي، الكويت، ١٩٧٧م.

المربين، وكذلك نماذج من أقوالهم وآرائهم وأفكارهم في مجال التربية والتعليم. ورَكَزَت الدراسة على الحديث عن القابسي، إذ قدّم الباحث تعريفاً به من حيث نشأته، وبيئته، وزمانه، ومكانه، وأشهر آرائه وأفكاره في التربية، والنفس الإنسانية، والأخلاق وطبيعتها، وكيفية اكتسابها، وأسباب اختلافها. كما بيّنت الدراسة أهم الخصال التي يجب أن تتوفر لدى طالب العلم، وصفات المتعلم.

ثانياً: وقام الكحلوت ١٩٨٦م^(٦) بدراسة بعنوان: الإنسان في فلسفة الكندي، هدفت إلى تحليل النزعة الإنسانية الرائدة عند أول الفلاسفة المسلمين، لتكشف عن البعد الإنساني في فكر الفلاسفة المسلمين الآخرين. وجاءت الدراسة في أربعة أبواب وخاتمة. الباب الأول جُعِلَ لعرض لمحة عن حياة الكندي ومؤلفاته التي ذكر بعض أصحاب التراجم أنها تزيد على ٢٤٢ مؤلفاً. والباب الثاني تعرّض لتصنيف الكندي للعلوم، ليوضح تحت أي علم يقع علم الإنسان. والباب الثالث عالِج قضية المعرفة الإنسانية كما بدت في فلسفة الكندي، فأوردت الدراسة مصادر المعرفة عنده. والباب الرابع تمّ فيه عرض نظرة الكندي في الحكمة العملية التي هي نتيجة لنظرته في العلوم النظرية. وكشفت الدراسة أن الإنسان يتكون من جسد ونفس، والنفس عنده كمال أول لجسم طبيعي، ويمتاز الإنسان بأن هذه النفس ناطقة، وأن مصادر المعرفة عنده ما يأتي بدون عناء وهو ما يحصل للأنبياء، وما يحصل بجهد واكتساب وهذه مصادرها من: الحس، والعقل، ومأثورات الأوائل. وإن المكانة الوجودية للإنسان تحصل له بعلمه.

ثالثاً: وأجرى النعيمي ١٩٩٢م^(٧) دراسة بعنوان: المناهج وطرق التعليم عند القابسي وابن خلدون، وهدفت إلى الكشف عن جزء من إسهامات كل من القابسي وابن خلدون في الفكر التربوي الإسلامي، الذي نما وازدهر، وبيان أصالته وأهميته في ربطه بالحاضر، وبناء مستقبل أفضل للأمة العربية في ضوء الحضارة العالمية المعاصرة. وقد استخدم الباحث في دراسته الأسلوب الوصفي التاريخي التحليلي. وأظهرت نتائج الدراسة أن أهم إسهامات القابسي في مجالات المناهج، وطرق التعليم، والفكر التربوي عامة تتلخص فيما يلي:

- ١- أدرك أن بعض الأساليب للتعليم تُعدّ هامة ومفيدة في عملية التعليم.
- ٢- التلازم بين الثواب والعقاب، وكانت نظرتَه للعقاب نظرة إصلاح وإرشاد وتقويم للسلوك.
- ٣- وضع منهجاً متكاملًا للتربية الخلقية، وبيّن الدور التربوي الذي تقوم به الأسرة كمؤسسة تربوية.

٦- محمد سليم الكحلوت، الإنسان في فلسفة الكندي، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٨٦م.

٧- عبد الله الأمين النعيمي، المناهج وطرق التعليم عند القابسي وابن خلدون، دار الفكر، الأردن، ١٩٩٢م.

٤- ظهرت ملامح الإلزام في التعليم في فكره التربوي.

رابعاً: وقام العدوان ٢٠٠٤م^(٨) بدراسة بعنوان: الفكر التربوي العربي الإسلامي لدى الرازي والنووي وابن قيم الجوزية، هدفت إلى تعرف الفكر التربوي العربي الإسلامي لدى بعض أعلامه أمثال: فخر الدين الرازي، والنووي، وابن قيم الجوزية، ومعرفة أوجه الشبه والاختلاف بين المفكرين الثلاثة.

واتبع الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، وبيّنت الدراسة النتائج التالية:

١- الأهداف التربوية: لقد اتفق المفكرون على تحقيق العبودية الخالصة لله في حياة الإنسان، وترسيخ

الأخلاق والقيم الإسلامية، وتعميق مهارات التفكير لدى الإنسان.

٢- المنهج الدراسي: لقد كان القرآن أول مفردات المنهج، ثم بعد ذلك تعلم العلوم الشرعية، ومن

ثم العلوم الأخرى مثل: التفسير واللغة والحديث والفراصة والطب والشعر والرياضيات

والهندسة، وحرّموا تعليم السحر والتنجيم، وأكدوا على ضرورة الترابط بين العلوم المختلفة في

المنهج الدراسي.

٣- المعلم: على الرغم من المنزلة العالية التي يشغلها، فقد حددوا له كفايات تعليمية، وأوجبوا عليه

تحصيلها، منها: أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى، وأن يتخلّق بالمحاسن التي ورد الشرع بها، وأن

يقدم النصح والإرشاد للمتعلم، وأن ينتمي لمهنته ويحبها.

٤- طرائق التدريس: أكدوا على طريقة المحاضرة ومن ثم استعمال الأمثلة لتثبيت المادة العلمية في

ذهن المتعلم، كما أكدوا على طريقتي التحليل والاستنباط لأنهما تؤديان إلى الإبداع.

خامساً: وأجرى الرفاعي ٢٠٠٧م^(٩) دراسة، هدفت الدراسة إلى توضيح الجذور التربوية عند كل من

الكندي والقاسبي وروسو، واتبع الباحث منهجية نوعية تحليلية مقارنة، مناسبة هذا النوع من المناهج لهذه

الدراسة، وأظهرت أن لدى الكندي والقاسبي رؤية واضحة حول الجذور الفلسفية للتربية المتمثلة بالذات

الإلهية، وطبيعة الكون، والغيب، والحياة الدنيا، والحياة الآخرة. والجذور المعرفية للتربية المتمثلة بمصادر

المعرفة، والجذور النفسية للتربية المتمثلة بحقيقة النفس الإنسانية، وطبيعة النفس الإنسانية، ومصير الإنسان.

وهم متفقون فيها مع المدرسة الإسلامية، والمدرسة اليونانية في كثير من الآراء ومختلفون في بعضها الآخر.

٨- أحمد مشاري العدوان، "الفكر الإسلامي" مجلة عالم المعرفة، المجلد ٦، العدد ٢، الكويت، ٢٠٠٤م.

٩- عماد حسين الرفاعي، الجذور الفلسفية للفكر التربوي عند الكندي والقاسبي وروسو: دراسة تحليلية مقارنة،

أطروحة دكتوراة غير منشورة في كلية الدراسات التربوية العليا، تخصص فلسفة أصول التربية.

سادساً: وقام السليم ٢٠٠٨م^(١٠) بدراسة هدفت إلى إبراز الفلسفة التربوية لابن طفيل في ضوء رؤيته للطبيعة الإنسانية من خلال قصة حي بن يقظان، وقد بينت الدراسة أن هدف العلم لدى ابن طفيل الوصول إلى معرفة الله والتقرب إليه، وأن نظرة ابن طفيل للطبيعة الإنسانية تميزت بالشمول والتكامل تساعد على فهم قدرات الإنسان وإمكاناته.

يلاحظ من الدراسات السابقة أنها لم تأخذ المدرسة الأشعرية كوحدة فكرية وتربوية واحدة، وإنما تحدثت عن بعض أعلام المدرسة الأشعرية بشكل منفصل كالغزالي والرازي دون إيجاد أي روابط فكرية بين علماء هذه المدرسة. وقد كان واضحاً أن كثير من أعلام مدرسة الأشاعرة لم يتم دراسة أفكارهم التربوية من أمثال مؤسس المدرسة الأشعرية الإمام أبي الحسن علي بن إساعيل الأشعري، وهذا ما ستحاول هذه الدراسة بيانها بالبحث والتحليل.

٣- منهج الدراسة:

استخدم الباحث المنهج الوصفي التاريخي التحليلي البنائي لأنه من أكثر مناهج البحث صلاحية لمثل هذه الدراسة وفق الخطوات الآتية^(١١):

٣-١: قام الباحث بالرجوع إلى المؤلفات الخاصة بالقاضي عبد الجبار الهمداني المذكورة في حدود الدراسة وهي: تثبيت دلائل النبوة، شرح الأصول الخمسة، طبقات المعتزلة، فضل الاعتزال، المحيط بالتكليف، المختصر في أصول الدين، المعني في أبواب التوحيد والعدل.

٣-٢: قام الباحث بوصف الآراء والأفكار التي وردت في كتابات القاضي عبد الجبار الهمداني، وصفاً كيفياً في ضوء أسئلة الدراسة.

٣-٣: قام الباحث بتحليل الآراء والأفكار والنصوص التي تركها القاضي عبد الجبار الهمداني، وتم التحليل وفق نظرة تتسم بالدقة والشمول، إذ يقوم الباحث بقراءة النص قراءة مستفيضة لكي يتسنى له التحليل على وفق أهداف البحث، ليتوصل من خلال التحليل إلى بناء آراء وأفكار تتسم وطبيعة البحث.

١٠- بشار عبد الله السليم، "الفلسفة التربوية لابن طفيل في ضوء رؤيته للطبيعة الإنسانية: دراسة تحليلية لقصة حي بن يقظان"، مجلة جامعة أم القرى للدراسات التربوية والنفسية، المجلد العشرون، العدد الأول، ص ١٣١-١٧٦.

١١- فان دالين ديوبولد، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة محمد نبيل نوفل وسليمان الخضري الشيخ وطلعت منصور غبريال، مراجعة سيد أحمد عثمان، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٥م، ص ٢٧٣-٣٢٥.

٣-٤: ويتم ذلك ببناء الأفكار والمبادئ، إذ يقوم الباحث بجمع الجزئيات وتركيبها وفق عناوين البحث للتوصل إلى المفاهيم والأفكار المراد توضيحها.

نتائج الدراسة: جاءت نتائج الدراسة وفق المنهج المتبع كما يلي.

٤- الأسس الفكرية عند القاضي عبد الجبار الهمداني:

٤-١: النظرة إلى الله سبحانه وتعالى:

امتازت أفكار القاضي في التوحيد وتصوراته للذات الإلهية، بقدر عالٍ من التجريد والتنزيه، واتسمت دفاعاته عن هذا الأصل المبدئي بتنوع براهينه العقلية وحججه الجدلية والنقلية ضد تيارات المشبهة الحشوية التي عجزت عقولهم إن تسمو بتصوير الذات الإلهية، عن حدود الموجودات الحادثة المخلوقة^(١٢). لذلك رفض القاضي عبد الجبار أي نوع من أنواع الفصل أو التعدد بين صفات الله وبين ذاته، لأن الله قديم وصفة القدم أخص صفاته، فأثبتوا وحدة الذات الإلهية، ونفوا الصفات الزائدة لأنها في رأيهم تؤدي إلى الشرك، فالله عالم بذاته، لا يعلم زائد عليها، وهو قادر بذاته لا بقدره خارجة عنها، وتنزيه الله عن المماثلة والتشبيه بصفات الإنسان، كان دعوة إلى تأويل كافة آيات التشبيه في القرآن، فأنكروا رؤية الله في دار الآخرة، كما استحالت في الدنيا، لأن رؤيته تقتضي التشبيه والتجسيم^(١٣).

ونشير هنا إلى أن القاضي اعتمد على الأدلة العقلية لإثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى، وهو يمثل بهذا فكر المعتزلة، وهذا بخلاف رأي أهل السنة والجماعة الذين مزجوا ما بين العقل والنقل، وتقديم دليل النقل على العقل لإثبات وجود الخالق، فأدلة أهل السنة لإثبات وجود الخالق كانت متعددة وكثيرة ومستقاة من القرآن الكريم.

٤-٢: النظرة إلى الكون:

استدل القاضي على خلق العالم وحدوثه بأفعال الله سبحانه وتعالى مستخدماً بذلك الاستدلال العقلي على وجوده تعالى، ولذلك يبقى العقل بالنسبة إليه هو المرتكز الأساس في مجمل طروحاتهم، فالاسترشاد بالعقل طريقه في معاينة قدم الله وحدوث العالم، والتي اعتمد أصلاً على أن لكل فعل فاعلاً ولكل حادث محدثاً، وهكذا يصحح الطريق عند القاضي لمعرفة الله هي تلك الأفعال والتي عاينها من خلال قياس الغائب على الشاهد، وهكذا يصل إلى افتراضه الذي يؤكد فيه: إن العالم مُحدث ولا بد له من

١٢- القاضي عبد الجبار المعتزلي، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة، ط ١، ١٩٦٥م، ص ١٥٤.

١٣- القاضي عبد الجبار المعتزلي، طبقات المعتزلة، مصر، ط ١، ١٩٧١م، ١٧٤-١٧٨.

مُحَدِّثٌ هُوَ اللهُ (١٤). أما الأفعال التي استدلت بها القاضي على قدم الله وحدوث العالم هي على نوعين:
النوع الأول: ما لا يدخل جنسه تحت مقدورنا، ولقد عدّها القاضي ثلاثة عشر نوعاً وهي: الجواهر،
والأكوان، والطعوم، والروائح، والحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، والحياة، والقدرة،
والشهرة، والنقرة، والفناء، وهذه جميعها استدلالاً على وجود الله، باستثناء الفناء، فإن طريق
معرفة السمع.

النوع الثاني: ما يدخل جنسه تحت مقدورنا: وهي عشرة أنواع، خمسة من أفعال الجوارح، وخمسة من أفعال
القلوب، فأما أفعال الجوارح فهي: الأكوان، والاعتقادات، والتأليفات، والأصوات، والآلام.
وأما أفعال القلوب فهي: الاعتقادات، والإرادات، والكرهات، والظنون، والأنظار، وهذه
الأنواع في نظر القاضي لا يمكن الاستدلال بها على الله (١٥).

٤-٣: النظرة إلى الطبيعة الإنسانية لدى القاضي عبد الجبار:

جاءت قضية الطبيعة الإنسانية في مجمل القضايا الكبرى التي تصدى لها القاضي عبد الجبار
بالبحث والتحليل، لدورها العملي والأخلاقي في الحياة وما ينسحب عليه من سعادةٍ وشقاء في الدنيا
والآخرة. والطبيعة الإنسانية في نظر القاضي عبد الجبار هي الوجود الحقيقي الواقعي للإنسان وليس
الوجود الذهني الاعتباري، لذلك فإن الحكم على الإنسان "يتحدد من خلال سلوكه، ونشاطه ومن خلال
اختياره وإرادته، وقدرته على التنفيذ، متخذاً من العمل سبيلاً ومنهجاً يلتزم به، ومن الإيمان مصدر
انطلاق وثبات" (١٦). وعليه فقد تناول القاضي عبد الجبار في أطروحته الفكرية بصورة مباشرة أو غير
مباشرة جميع جوانب الطبيعة الإنسانية وعلى النحو الآتي:

٤-٣-١: الجسد والروح:

يرى القاضي عبد الجبار أن الإنسان: "هو الجملة التي نشاهدها، لا أنه خارج عنها أو شيء
بداخلها، وأوضح دليل عليه هو الإشارة إلى البنية المخصوصة" (١٧). وقد قامت رؤيته هذه على الدليل
النقلي الذي يؤكد العنصر المادي في الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

١٤- عبد الستار عز الدين الراوي، العقل والحرية: دراسة في فكر القاضي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م، ص ٢٩٠.

١٥- القاضي، شرح الأصول الخمسة، ص ٩٠.

١٦- القاضي عبد الجبار المعتزلي، طبقات المعتزلة، ص ١٩٤-٢٠٠.

١٧- القاضي، شرح الأصول الخمسة، ص ٦٥.

فِي قَرَارِ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا التُّفْهَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ ﴿١٨﴾. وعلى ذلك فالإنسان كما ورد في الآية ليس إلا كوناً مادياً. والقاضي هنا أكد على الجانب المادي في الإنسان (١٩). معنى ذلك أن نظرة القاضي للإنسان نظرة عميقة وإنها مبنية على وفق ما يمتلك من طاقات وقابليات تؤهله لأن يكون بمستوى المسؤولية التي خُلق من أجلها في هذا الكون، وهي بناء مجتمع متحضر متطور يمتلك أساليب الحياة السعيدة.

٤-٣-٢: العقل:

يُنظر إلى القاضي عبد الجبار أنه من أصحاب النظرة العقلية بلا منازع في الفكر الإسلامي؛ لذلك جاءت نظريته في الأصول الخمسة وفروعها مبنية على النظر العقلي المستند إلى ما جاء في القرآن الكريم من إشارات لطيفة إلى دور العقل في حياة الإنسان.

ويميز القاضي عبد الجبار بين نوعين من العقل هما: العقل الغريزي المطبوع، وهو مجموعة العلوم البديهية الفطرية، وهي علوم لا ينفك عنها العقل المكلف، ولا تؤثر فيها عوامل الزمان والمكان والبيئة، وبالتالي تُعد من كمال العقل، إذ يقول: "ومن كمال العقل أن يعرف بعض المقبحات، وبعض المحسنات، وبعض الواجبات، فيعرف قبح الظلم، وكفر النعمة، والكذب الذي لا نفع فيه ولا دفع ضرر، ويعلم حسن الإحسان والتفضل، ويعلم وجوب شكر المنعم ووجوب رد الوديعة عند المطالبة، والإنصاف، ويعلم حسن الذم على القبيح إذا لم يكن هناك منع، وحسن الذم على الإخلال بالواجب مع ارتفاع الموانع، وإنما يجب حصول هذه العلوم، لأنها لو لم تحصل لم يحصل للمكلف الخوف من ألا يفعل النظر، وابتداء التكليف متعلق به، ولأنه لا يصح منه العلم بالعدل إلا معه، لأنه متى لم يعرف الفرق بين الحسن والقبيح لم يصح أن ينزه القديم تعالى... عن المقبحات، ويضيف إليه المحسنات". وبناء على ذلك فالقاضي يؤكد على أن المكلف يحتاج إلى هذا العقل "لأن به يعلم الكثير مما كُلف، نحو وجوب رد الوديعة وشكر المنعم وقبح الظلم وحسن الإحسان" (٢٠). أما العقل الثاني فهو العقل المكتسب، وهو مجموعة العلوم النظرية الاكتسابية التي يحصل عليها الإنسان نتيجة التعلم والنظر والاستدلال، وهذه العلوم لا تحصل في الإنسان إلا على أساس العلوم الضرورية، معنى ذلك أن العقل المكتسب لا يكون في الإنسان إلا على أساس العقل الغريزي، إذ يقولون في تعريف العقل إنه: "عبارة عن جملة من العلوم مخصوصة،

١٨- سورة المؤمنون، الآيات: ١٢-١٤.

١٩- المرجع نفسه، ص ٢٥١.

٢٠- القاضي عبد الجبار المعتزلي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، مصر، ط ١، ج ١١، ص ٣٨٣-٣٨٤.

متى حصلت في المكلف صح منه النظر والاستدلال والقيام بأداء ما كلف" (٢١).

٤-٣-٣: الخير والشر:

يرى القاضي عبد الجبار أن مصدر الشر في الإنسان هي حاجاته أو رغباته، لاسيما وإن هذه الحاجات إذا تمكنت من الإنسان قادتة إلى فعل الشر، أما مصدر الخير فهو عقله، لذلك فإن مهمة العقل هي السيطرة على هذه الغرائز والحاجات وترويضها بما ينسجم وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة (٢٢).

٤-٣-٤: الوراثة والبيئة والسلوك:

يرى القاضي عبد الجبار أن البيئة أو التعليم والتهديب هما اللذان يجعلان الإنسان خيراً أو شريراً. وقوله هذا ينسجم مع رؤية القرآن للإنسان، والتي تتجسد في الآية القرآنية الآتية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۗ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۗ ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۗ ﴿٢﴾﴾. معنى ذلك أن في داخل الإنسان استعدادات وقدرات لها القابلية أن تتشكل بجانب الخير وعند ذلك يوصف الإنسان بأنه خير، كذلك لها نفس القابلية أن تتشكل بجانب الشر فيصبح الإنسان شريراً، ولكن هذا لا يتعارض مع إرادة الإنسان وقدرته واختياراته (٢٤).

وهذا يشير إلى أن شخصية الإنسان هي مزيج من خياراته وقدرته على الاختيار ومن تأثيرات البيئة المادية الطبيعية والاجتماعية التي يعيش وسطها، فللتربية دور فعال في تشكيل السلوك عند الإنسان وفي بناء شخصيته على وفق استعداداته وميوله ورغباته. وبناء على ذلك فإن الإنسان خالق لأفعاله وهو مسؤول عن أفعاله المباشرة وغير المباشرة (أي المتولدة من فعله المباشر)، بل لقد بلغت الجراءة الفكرية بالقاضي عبد الجبار إلى الحد الذي أجازوا فيه وصف الإنسان بالمخترع، فقالوا: "إن كون القديم مخترعا ومحدثا لم يثبت أنه مما يختص به ولا يشركه فيه أحد"، ورأى أن في الحكم للإنسان بإحداث أفعاله السبيل الوحيد للتوصل (إلى معرفة الله أصلاً) (٢٥).

ورأى القاضي عبد الجبار هذا فيه جانب تربوي متقدم جداً، فهو قرن الفعل الإنساني بمسألة

٢١- المرجع نفسه، ص ٣٧٢.

٢٢- عبد الغني النوري، نحو فلسفة عربية للتربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٩م، ص ١١٦-١١٧.

٢٣- سورة الشمس، الآيات: ٧-١٠.

٢٤- محروس سيد مرسي، التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي، كلية التربية، أسيوط، ١٩٧٩م، ص ٢٩٢.

٢٥- القاضي عبد الجبار المعتزلي، فضل الاعتزال، طبعة تونس، ١٩٧٤م، ص ١٩٩.

الثواب والعقاب، وكان بارعاً في هذا المجال، بحيث أكد أن الإنسان يستحق الثواب والعقاب في ضوء ما يقدمه من أعمال بمحض إرادته.

٤-٣-٥: الفردية والاجتماعية:

اهتم القاضي عبد الجبار بالفرد والجماعة فقد أكد على تنمية الروح الجماعية بداخل الفرد ووصف الفعل الإنساني بالعدل والحكمة إذا كان متعلقاً بالآخرين، فيقول: "وأما ما يفعله الفاعل منا بنفسه لمنفعة أو دفع مضرة، فإنه يوصف بذلك" (٢٦). وأن العدل "هو توفير حق الغير واستيفاء الحق منه" (٢٧).

وبناء على ذلك يلاحظ أن القاضي اهتم بالمجتمع وبنائه، كما اهتم بالفرد وحرية، ورأيه في هذا الموضوع متفق تماماً مع الرأي الإسلامي العام، وهو أن الفرد هو الوحدة المهمة والفعالة والأساسية في بناء المجتمع، وأن المجتمع عبارة عن مجموعة من الأفراد تربطهم مصالح مشتركة وقضايا مصيرية، فلا الفرد يعلو على المجتمع ولا المجتمع يسحق الأفراد بداخله، بل هناك حركة دينامية داخل المجتمع مكونة من تفاعل الأفراد مع بعضهم.

٥- التطبيقات التربوية للأسس الفكرية في العملية التعليمية:

أنتجت الأسس الفكرية لدى القاضي عبد الجبار الهمذاني تطبيقات تربوية إبداعية في جوانب العملية التعليمية المختلفة، ويمكن بيان هذه التطبيقات من خلال الجوانب التالية:

٥-١: العلاقة بين العلم والتربية:

يرى القاضي عبد الجبار أن العلم الذي يحصل عليه الإنسان نتيجة للنظر ويكون مقدوراً للإنسان بشرط تحقق العلم الضروري الذي يُعد أساساً للعلم النظري، وقد تحدث القاضي عن هذا العلم من حيث الموضوع، ومن حيث المنهج ومن حيث موقعه من بنية العقل:

١- من حيث الموضوع فهو: العلم بجزئيات الوجود كالعلم بأن زيداً من الناس قادر.

٢- من حيث المنهج فهو: العلم الذي لا فعله الواحد منا إلا عن نظر، أو ذكر نظر، كالناظر في الأجسام ليعرف الله.

٣- من حيث موقعه من بنية العقل فهو: العلم بالفروع والذي يبنى على الأصول الضرورية (٢٨).

٢٦- القاضي، المعني في أبواب التوحيد والعدل، ص ٤٨.

٢٧- القاضي، شرح الأصول الخمسة، ص ٣٠١.

٢٨- حسن زيني، العقل عند المعتزلة، بيروت، ط ١، ١٩٧٨م، ص ٦٥.

٥-٢: الأهداف التربوية:

يرى القاضي أن التربية يجب أن تسعى إلى تحقيق مجموعة من الأهداف تتعلق بالإنسان وعلاقته بالخالق سبحانه وتعالى والكون والمجتمع، و يستطيع الباحث أن يستخلص جملة من الأهداف تتمثل بـ:

- ١- وصول المتعلم إلى معرفة الله سبحانه وتعالى بكل صفاته من التوحيد والعدل.
- ٢- تمكين المتعلم من معرفة أوامر الخالق ونواهيه بعد معرفة صفاته.
- ٣- إصلاح الإنسان في دنياه وآخرته.
- ٤- غرس الدين (العقيدة) في نفوس المسلمين عن طريق العقل والدليل والحجة المقنعة.
- ٥- توجيه طاقات أبناء الأمة الإسلامية توجيهاً سليماً.
- ٦- تربية وتهذيب النفس على الفضيلة وإكسابها الأخلاق الفاضلة والعادات السليمة.
- ٧- الوصول إلى الحقيقة وتحصيل العلوم (٢٩).
- ٨- الدفاع عن العقيدة الإسلامية.
- ٩- تكوين مجتمع متحضر يتلقى العقيدة والمعرفة عن طريق النظر العقلي والبحث والدرس وليس عن طريق التقليد والاتباع.
- ١٠- تكوين الشخصية العلمية الباحثة عن الحقيقة.
- ١١- تشكيل الشخصية المتوازنة (٣٠).

٥-٣: المعلم.

أعطى القاضي عبد الجبار اهتماماً كبيراً للمعلم باعتباره العنصر الفعّال والمهم لنجاح المهمة التربوية، لذلك أوجب وجود معلم يمتلك كفايات تؤهله أن يؤدي مهمته على أحسن وجه، منها:

- ١- الاختصاص العلمي: معنى ذلك أن يكون لكل علم من العلوم مختص به، لديه القدرة على العطاء والمنح، إذ يقول: "وجدنا لكل صنف من جميع ما بالناس إلى تعلمه حاجة، معلمين، كمعلمي الكتاب والحساب أو الفرائض والقرآن، والنحو والعروض والأشعار، والأخبار والآثار" (٣١).

٢٩- القاضي، شرح الأصول الخمسة، ج ٨، ص ١٥٦-٢١٣.

٣٠- القاضي، فضل الاعتزال، ص ٦٧-٨٢.

٣١- القاضي عبد الجبار المعتزلي، طبقات المعتزلة، ص ١٠٢.

- ٢- الإخلاص في العمل: أي له القدرة على تقويم الأبناء، وهذه الأمور يتم التأكد منها باختباره من قبل أناس ذوي خبرة.
- ٣- يجب أن لا يكون المعلم رديء الطبع بطيء اللفظ.
- ٤- على المعلم الابتعاد عن التكبر والغرور.
- ٥- ضرورة تشجيع التلاميذ على مبدأ النقد الذاتي: حيث يرى القاضي عبد الجبار أن الخلاف في فروع العلم بين المعلم والتلميذ ليس بمستكره، لأن مخالفة التابع للمتبع في دقيق الكلام ليس بمستكره. وهذا ينسجم مع فكرة التطور والتحديث في الأفكار وعدم الجمود والوقوف أمام ما أنتجه الأسلاف وكأنه شيء مقدس لا يأتيه الباطل، وهذه تُعد التفاتة قيمة في ميدان الفكر التربوي.
- ٦- أن يكون عالماً باللغة العربية وعلومها ذا دراية بالنحو والرواية.
- ٧- أن يتميز بثقافته الفقهية الشاملة لأحكام القرآن وأصوله.
- ٨- أن يكون مستوعباً لقضايا التوحيد والعدل، فهما يُعدان معيارين أساسيين لإجازة المفسر.
- ٩- له القدرة على فهم المحكم والمتشابه من آيات القرآن، ومن ثم ردّ المتشابه إلى المحكم (٣٢).
- يلاحظ مما سبق أن القاضي وضع شروطاً وكفايات يجب توافرها بالمعلم وينبغي على المعلم امتلاكها أو تحصيلها لكي يكون مؤهلاً لأداء عمله على أحسن وجه، وهذا ما تؤكد الدراسات الحديثة في مجال فلسفة إعداد المعلم.

٤-٥: المتعلم (الطفل) في الفكر التربوي للقاضي عبد الجبار:

اهتم القاضي عبد الجبار بمرحلة الطفولة لأنها تختلف عن كل المراحل العمرية ففيها يتعلم المعارف الاضطرارية كالعلم بالمدرجات (أي ما تأتي به الحواس، أو نتيجة التكرار والعادة والاختبار لبعض الأشياء)، على اعتبار أن لدى الطفل قدرة على التمييز ما بين الأشياء، ولكن هذه القدرة ليست بمستوى العقل الناضج، كذلك أن الطفل يفعل الأشياء لداع أو لقصد، وكذلك أن معارف الطفل مرتبطة بحاجاته الفسيولوجية والنفسية. وبالتالي أن هذه المرحلة تُعد أساساً لما سيأتي بعدها، لأن فيها تتكامل العلوم الضرورية التي تُعد أساساً للعلوم النظرية أو المكتسبة. وقد ظهر اهتمام القاضي عبد الجبار بمرحلة الطفولة من خلال الاهتمام بمرحل الطفولة حسب الخصائص والمرحلة العمرية، وقد قسم المراحل إلى:

٣٢- القاضي عبد الجبار المعتزلي، المحيط بالتكليف، تحقيق: عمر عزمي، مصر، ط ١، ١٩٦٥م، ص ٦٠٦-٦٠٨.

١- مرحلة الصبا:

- وقد بيّن خصائص وسهات ومتطلبات هذه المرحلة وأساليب التعامل كالآتي:
- (أ) الطفل يمتلك قدرة التمييز بين الأشياء: يذهب القاضي إلى أن الصبي يمتلك القدرة على الاختيار والتمييز بين الأشياء إذ يقولون: "إن من لا عقل له - يقصدون به الصبي غير التام العقل - قد يعرف الأفعال ويميزها" (٣٣).
- (ب) يعرف ما يختص هو به من الحال نحو كونه مريداً وكارها ومعتقداً (٣٤).
- (ج) العلم بالمدرجات الحسية: وقد قسمها القاضي إلى: الإدراك الحسي والاختبار والعادات.
- (د) الصبي يقوم بالفعل نتيجة لقصدٍ أو داعٍ بخلاف الساهي والنائم اللذين يقدمان على الفعل بغير قصدٍ أو داعٍ (٣٥).
- (هـ) مراعاة حاجات الطفل غير المسيطر عليها والتي يتوجب إشباعها: حيث يرى القاضي أن الشهوة تغلب على الصبي فلا يتهذب له تمييز الحجة من الشبهة التي تقوى بتقوية الشهوة ولهذا التمسوا العذر للصبي الذي يخطأ في عملية الاستدلال (٣٦).
- (و) مراعاة الفروق الفردية: راعى القاضي عبد الجبار الفروق الفردية، حيث نجد أنه لم يوجب أن يكون الصبي ملزماً برد الدين أو العهد أو غيره حتى بعد تمام عقله، إذ يقولون: "ومتى كان قد أودع أو دين قبل العقل لم يلزمه عقلاً عند كمال عقله أن يرده الوديعة ويقضي الدين" (٣٧).

٢- مرحلة النضوج أو تمام العقل:

لم يحدد القاضي سناً ثابتة لنضوج العقل ووجوب المعرفة (معرفة الخالق بصفاته من التوحيد والعدل) وصحة الإيمان، لكنه قرن ذلك بقدرة الإنسان على عملية التوافق الاجتماعي، وهذا الأمر مرتبط بدور "العقل ووظيفته الأساسية في قمع الشهوات عند الفرد لكي يكمل عملية التوافق الاجتماعي ويستحق أن يوصف بأنه عاقل" (٣٨). وهنا نجد أن العقل وظيفته تبصير الفرد بما ينفع وما يضر، وبالتالي

٣٣- القاضي، شرح الأصول الخمسة، ج ١٢، ص ٢٩٩.

٣٤- المرجع نفسه، ج ١١، ص ٣٨٢.

٣٥- المرجع نفسه، ج ٦، ص ١٨٦-١٨٧.

٣٦- المرجع نفسه، ج ١٢، ص ٢٩٢.

٣٧- المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٠.

٣٨- زيني، العقل عند المعتزلة، ص ٣٨.

هو وسيلة تحقق للفرد البقاء والاستمرار في الحياة ووسط الجماعة.

وقد وضع القاضي عبد الجبار صفات المتعلمين، منها:

- أ- يعرف البدييات، كمعرفته بأن الكل أكبر من الجزء، وأن الشيء يوجد في مكان واحد... وغيرها.
- ب - يعلم بالدليل على الوجه الذي يدل (٣٩).
- ت - يعلم الفعل على وجه يصح الإقدام عليه والتحرز منه، وهذا لا يعني أنه يختار الطاعة دون المعصية (٤٠).
- ث - يعلم بأحوال الفعل كالعلم بقبح القبيح وحسن الحسن على جهة الجملة (٤١).

٥-٥: المنهج الدراسي:

اعتمد المنهج الدراسي للتلاميذ عند القاضي على نظريته في الأصول الخمس، إذ اعتبره منهجاً أساسياً لعقيدة الإنسان المسلم، غير أنها لاتعد قائمة بذاتها، وإنما تتصل جديلاً بغيرها، التي تقضي بضرورة معرفة الفقه والشرع (٤٢). إلا أننا نجد أن لديه إشارات إلى مواد دراسية أخرى اعتبرها مهمة للمتعلم؛ إذ يقول: وينبغي على الفقيه المتكلم أن يكون ملماً بعلوم القرآن والسنة والرجال، واختلاف الفقهاء، مقتدراً على فحص موافقهم وتشخيص انتماياتهم، كما يستلزم قدراً عالياً من الثقافة، ومعرفة بالكلام والملل والنحل وأحداث التاريخ (٤٣). وقد أوجب القاضي عبد الجبار أن يتضمن المنهج الدراسي ما أطلق عليه العلم الضروري: وهو "العلم الذي يحصل فينا لا من قبلنا ولا يمكن نفيه عن النفس بوجه من الوجوه" (٤٤). وبهذا فإن المنهج الدراسي اشتمل على: القرآن الكريم والسنة النبوية والنحو والشعر والحساب، وعلم الكلام، ونظريته في الأصول الخمس، وعلوم القرآن والسنة النبوية وعلم الرجال (رجال الحديث)، وكتب الفقه المقارن، وأصحاب المقالات (الملل والنحل) والتاريخ، لأن هذه العلوم في نظرهم مهمة لإعداد المتكلم وجعله بالمستوى المطلوب.

٣٩- القاضي، شرح الأصول الخمسة، ج ١١، ص ٣٨٠-٣٨٣.

٤٠- المرجع نفسه، ج ١٢، ص ١٥١.

٤١- المرجع نفسه، ج ١١، ص ١٩٨.

٤٢- القاضي، المحيط بالتكليف، ص ١٢٦.

٤٣- عبد الستار الراوي، العقل والحرية: دراسة في فكر القاضي، ص ١٦٣.

٤٤- القاضي، شرح الأصول الخمسة، ج ١، ص ٦.

٥-٦: طرق التدريس لدى القاضي عبد الجبار:

أولاً: أسلوب التعلم الذاتي:

ينادي القاضي بمبدأ التعلم الذاتي أو التربية الذاتية، أي أن عقل الإنسان أو المتعلم هو الذي يوجب عليه البحث عن المعرفة.

ثانياً: طريقة التكرار والمحاولة والخطأ:

يرى القاضي أن الطفل يتعلم اللغة عن طريق التكرار أو الإعادة إذ يقولون: "على حسب ما نجد الطفل ينشأ عليه فيتعلم لغة والديه، إذا تكررت منها الإشارات" (٤٥). وقد أشار إليها القاضي بوصفها من طرائق التعليم، فقد ذكره في تعلم الطفل للغة والديه عن طريق التكرار والإعادة، وكذلك ذكره عندما قال: إن إعادة النظر في الكتاب تمكن من استيعابه والوقوف على حده.

ثالثاً: طريقة تقويم المعلومات:

وهذا من "الأصول الخمسة"، فقد روي أن القاضي سأل أحد الطلبة عن المغايرة بين صفتي الشكر والكفر في الآية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٤٦)، فأجاب الطالب: إن نعم الله على عباده كثيرة، وكل شكر يأتي في مقابلها قليل وكل كفر يأتي في مقابلتها عظيم، فجاء الشكر بلفظ "فاعل" وجاء الكفر بلفظ "فعول" على وجه المبالغة، فتهلل وجه القاضي بأن تفسير الطالب يتفق ورأيه المذهبي المعتزلي (٤٧).

رابعاً: الطريقة التجريبية (إجراء التجارب):

اعتمد القاضي عبد الجبار على هذه الطريقة في الوصول إلى الحقيقة، وذلك بإجراء التجارب على الحيوانات ومن ثم الاستفادة منها في المجال الإنساني، وكذلك تم الاعتماد عليها في العلوم الطبيعية كإثبات الحركة والسكون بالنسبة للأجسام (٤٨).

خامساً: طريقة الإملاء:

وهذه الطريقة كانت تُستخدم من قبل العلماء والمشايع في الإسلام، وكذلك اعتمد المعتزلة على

٤٥- القاضي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ص ١٠٦.

٤٦- سورة الإنسان، الآية: ٣.

٤٧- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، القاهرة، ط ١، ١٩٥٧م، ج ٢، ص ٥١٤.

٤٨- القاضي، فضل الاعتزال، ص ٣٠٢.

هذه الطريقة في إيصال المادة العلمية إلى المتعلمين، فتذكر لنا المصادر أن القاضي عبد الجبار قضى زماناً طويلاً في التدريس والإملاء.

سادساً: طريقة التعلم التعاوني:

وهذه الطريقة تُعد فعالة ومهمة ومن الطرائق الحديثة وتتم بتقسيم المتعلمين على مجاميع، ويتم تقسيم المادة على أفراد هذه المجاميع ويكون التعلم هنا أجدى وأنفع. وقد تبّه القاضي عبد الجبار إلى هذه الطريقة كما مر معنا وذلك بقوله: الصبي عن الصبي أفهم، فتُعد هذه التفاتة مبكرة إلى فكرة التعلم عن طريق المجاميع.

٦- تنمية الإبداع والموهبة في فكر القاضي عبد الجبار التربوي:

اهتم القاضي عبد الجبار اهتماماً بالغاً بتنمية الإبداع والموهبة، وقد وضع قواعد أساسية تؤدي إلى تنمية الإبداع والموهبة لدى المتعلم، وأهم هذه القواعد:

القاعدة الأولى: رفض التقليد في المعرفة:

رفض القاضي عبد الجبار التقليد كطريق للمعرفة، لأن التقليد كما يكون في الحق يكون في الباطل، وكما يكون في الصحيح يكون في الفاسد، وكما يكون فيما ثبت بالدليل يكون فيما لا دليل عليه، فالتقليد، عندهم: "ليس بطريق للعلم لأن الباطل كالحق في ذلك" (٤٩). وهذا مبدأ مهم يجعل المتعلم يبحث عن المعرفة والمعلومة بنفسه، وهذا ما تناهى به المدارس التربوية الحديثة كالمدرسة البراجماتية.

القاعدة الثانية: تحرير التفكير من القيود:

تناول القاضي عبد الجبار الحرية الإنسانية، بحثاً ودرساً وتحليلاً تحت أصل من أصول مذهبهم سموه "العدل"، لأنه رأى في الجبر نسبة الظلم إلى الله، لأنه يحاسب ويثيب ويعاقب من لا ذنب له ولا فضل في معصية أو طاعة، وأن حرية الإنسان وقدرته ومسؤوليته نفي لهذا الظلم عن البارئ سبحانه، وإثبات لما يجب أن يثبت له من العدل (٥٠).

وقد تناول القاضي بالنقاش بعض المصطلحات المتعلقة بمفهوم الحرية الإنسانية، التي يرى بعضهم أنها لا تدع للإنسان مجالاً للاختيار كمفهومي "اللطف والالتجاء"، فقال إن اللطف هو الظروف

٤٩- القاضي، طبقات المعتزلة، ص ١٧٠.

٥٠- محمد عمارة، نظرة جديدة إلى التراث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٤م، ص ١٣٨.

الموضوعية الخارجية التي تحيط بالإنسان، والتي هي بمثابة ضرورات ودواعٍ للأفعال الطيبة والحسنة^(٥١). أما الالتجاء فهو قوة الدواعي التي تجعل الإنسان يُقدم على الفعل أو على الترك، وإن كان المعتزلة قد بلغوا في تأكيد حرية الإنسان وقدرته على الاختيار درجة جعلتهم لا يرون في الإلجاء ما ينفي قدرة الإنسان على الاختيار، وإن كان يضيق نطاق هذا الاختيار، وناقشوا في ذلك الكثير من الأمثلة، مثل من يضطره ظهور الوحش الكاسر إلى الهرب، أمختار هو في هروبه أم غير مختار؟ ورأى "أن الإلجاء لا يُخرج الملجأ من أن يكون على الفعل قادرًا وباختياره متعلق، لأن المشاهد للسير إذا خاف على نفسه، فهو ملجأ إلى الهرب، وهربه يقع باختياره لأنه متى عرض له في الهرب طرق، اختار سلوك أحدها، وفعل ذلك بحسب قدرته، لأنه يعدو على حسب ما يقدر عليه في السرعة والإبطاء، ويفعل السلوك بحسب علمه في قرب الطريق وبعده فليس يخرج الإلجاء أن يكون قادرًا على ما يقع منه، وإن حرفه عن فعل إلى فعل"^(٥٢).

معنى ذلك أن القاضي عبد الجبار أخذ بعين الاعتبار أن الإنسان يعيش وسط بيئة طبيعية واجتماعية وأنها تؤثر عليه في قراراته واختياراته، وبالتالي أقر بأن حرية الإنسان غير مطلقة إلى الحد الذي تنتفي فيه عنه كل القيود والالتزامات، وهذا يجعلنا نقول: إن فكر المعتزلة في مسألة حرية الإنسان كان فكراً واقعياً وليس مثالياً.

إذن رأي القاضي عبد الجبار، كغيره من علماء المعتزلة، هو أن الإنسان حر مختار مسؤول عن نتائج أفعاله، أما نوع الحرية والقدرة التي يمتلكها فهي مقيدة بالبيئة التي يعيش فيها، والقدرة التي يمتلكها الإنسان مصدرها الله سبحانه وتعالى، وهذه القدرة أو الاستطاعة مقرونة بشروط يجب توافرها داخل الإنسان وهي الصحة الجسدية والنفسية والمعرفة بنتائج الفعل. وذهب القاضي إلى هذا الرأي لاعتقاده أنه: لو كانت الأفعال الإنسانية من خلق الله سبحانه وتعالى لبطل الأمر والنهي، وبعثة الأنبياء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقبحت مسألة الثواب والعقاب، وبالتالي يكون لا وعد ولا وعيد، وبناء عليه تصبح دعوة النبي للكفار غير شرعية، لأن الله هو الخالق للكفر فيهم المانع لهم عن الإيمان. فلا سبيل إذن إلا القول بحرية الإرادة الإنسانية وإثباتها دعماً للعقل وللواقع، وإلغاء لكل التصورات الجبرية وتنزيهاً للذات الإلهية عن كل نقص.

٥١ - القاضي، المحيط بالتكليف، ص ٩١٥.

٥٢ - القاضي، شرح الأصول الخمسة، ج ١٢، ص ٣١٧.

القاعدة الثالثة: تعزيز الدافعية للتعلم:

يرى القاضي أن الجهل أو الشك يسبب حاجة داخل المتعلم وأن عدم إشباعها يؤدي إلى التوتر وضيق الصدر، لذلك "يستروح العاقل إلى إزالته بطلب البصيرة والكشف"^(٥٣). ويحاول المتعلم أن يزيل التوتر بحصول العلم الضروري، أو بحصول اعتقادات وتقوم هذه الاعتقادات بدور الدواعي (أو الدافعية) التي تدعوه إلى النظر والاستدلال^(٥٤).

القاعدة الرابعة: محاربة الخرافات والشعوذة:

دعا القاضي، وهو من أصحاب المنهج العقلي، إلى محاربة الخرافة والشعوذة، وله جهود كبيرة في حرب الخرافة والشعوذة في المجتمع الإسلامي، فقد أسهم إسهاماً عظيماً في إعلاء شأن العقل وتوجيه السهام إلى فكر الخرافة الذي شاع في المجتمع ... كما أسهم بالتأليف والمناظرة، وفي إفحام المنجمين الذين راجت بضاعتهم على الخاصة والعامة في ذلك التاريخ^(٥٥).

القاعدة الخامسة: إن العلم يحقق الفائدة والمنفعة للإنسان:

يرى القاضي أن من أوليات العلم وبيدهياته "اجتلاب النافع ودفع الضار ... ولولا ذلك لكان طلب العلم جهلاً"^(٥٦). لذلك نجد أن المعتزلة جعلوا طلب العلم والمعرفة واجباً على المكلف لتحقيق السعادة في دنياه وآخرته.

القاعدة السادسة: ضرورة تفعيل دور الحواس في التعلم والمعرفة:

ناقش القاضي عبد الجبار مسألة خطأ الحواس وقال: "لا يجوز الخطأ في الإدراك، بل قد يحصل التباس يمنع من سكون النفس"^(٥٧). وإن هذا الالتباس يحصل نتيجة لخطأ في قراءة العقل لمعطيات الإدراك الحسي، أي أن الخطأ في الاعتقاد وليس في الإدراك، لهذا ذهب إلى أن ليس كل اعتقاد علمياً لاسيما إذا كان الاعتقاد لا يطابق الواقع^(٥٨).

٥٣- المرجع نفسه، ج ١٥، ص ٤٠٥.

٥٤- المرجع نفسه، ج ١٢، ص ١٢٨.

٥٥- القاضي عبد الجبار المعتزلي، المختصر في أصول الدين، مطبوع ضمن رسائل العدل والتوحيد، دار الشروق، ط ٢، ١٩٨٨ م، ص ٥٣٨-٥٣٩.

٥٦- المرجع نفسه، ص ٥٣٢.

٥٧- القاضي، شرح الأصول الخمسة، ج ١٢، ص ١٦١.

٥٨- زيني، العقل عند المعتزلة، ص ٦١.

القاعدة السابعة: الحث على التفكير العقلي:

ويرى القاضي عبد الجبار أن العقل أهم مصدر من مصادر المعرفة وبه نحكم على صدق المعرفة الآتية عن طريق الحواس أو عن طريق النقل، فهو المعيار لقبول المعارف، ولكنه على الرغم من عده معياراً للحكم على المصدرين الآخرين للمعرفة محتاج لهما في الوصول إلى الحقيقة. حيث يقول أن "دليل العقل إذا منع من الشيء فالواجب في السمع، إذا ورد ظاهره بما يقتضي ذلك الشيء، أن نتأوله لأن الناصب لأدلة السمع هو الذي نصب أدلة العقل فلا يجوز فيها التناقض" (٥٩).

ويرى أن العقل له القدرة على إدراك كليات الأحكام المتصلة بالله وصفاته من التوحيد والعدل ووجوب شكره، كما له القدرة على معرفة الحسن والقبح على الجملة. أما الشريعة (أي النقل)، فأنها تكشف وتوضح للإنسان الطرائق التي يستطيع عن طريقها أن يؤدي هذه الواجبات العقلية عن طريق الصوم والصلاة والزكاة ومواقبتها، وهي أمور لا يستطيع العقل أن يعرضها، فلذلك تأتي الشريعة وتبين له كيف يؤدي هذه الطاعات، فهم يقولون: إن المعرفة وشكر المنعم ومعرفة الحسن والقبح واجبات عقلية، أما دور الشريعة النبوية توضيح مقدرات الأحكام ومؤقتات الطاعات التي لا يتطرق إليها عقل، ولا يهتدي إليها فكر (٦٠).

القاعدة الثامنة: ضرورة التراكم المعرفي لدى المتعلم لتعزيز النضج المعرفي:

يرى القاضي أن المعارف تتغير نتيجة لتراكم خبرات المتعلم وقدرته على الاستفادة من هذه الخبرات فيقول: "فحال المعارف يتغير بانضمام المعارف بعضها إلى بعض" أي أن المتعلم هنا يقوم بعملية موائمة بين ما يكون مخزوناً في الذاكرة وبين ما سيأتي من معارف وخبرات جديدة، وتأكيداً على هذا الأمر قال: إن النظر يولد العلم أو شيئاً من حيز المعرفة (٦١).

الخلاصة:

في ضوء النتائج السابقة يلاحظ أن معرفة الله تعالى في منهج القاضي عبد الجبار منهج عقلي، إذ إنه فهم العقيدة فهماً دقيقاً، فمعرفة الله تعالى عنده لا تنال إلا بحجة العقل، باعتبار أن العقل عنده المقياس الشرطي للحقيقة كما أنه طريق المعرفة اليقينية. وهو بخلاف منهج أهل السنة الذين نظروا إلى العقل أنه

٥٩- القاضي، شرح الأصول الخمسة، ج ١٢، ص ٢٨٠.

٦٠- عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، القاهرة، د.ت، ص ٨١.

٦١- القاضي، شرح الأصول الخمسة، ج ١٢، ص ١٠٤، ٢٢٥.

نور فطري حبا الله به الإنسان ليكون وسيلة للمعرفة، أي أنه يضم بحكم فطرته علوماً لا يقدر أن يصل إليها بمفرده، وهي ما يسمى بالمعرفة الغريزية الفطرية والتي تكون أساساً للعلوم النظرية المكتسبة. وقد نظر إلى العالم الطبيعي نظرة علمية دقيقة وحاول من خلال توظيف مقولات الفلاسفة الطبيعية إثبات حقيقة يؤمن بها تقوم على أساس عقيدة التوحيد الذي يُعد أصلاً من أصوله الفكرية وهي: أن الله واحد أزلي قديم وما دونه حادث مخلوق، لذلك جاءت براهينهم واستدلالاتهم لإثبات وإقرار هذه الحقيقة والتي تُعد صلب ومرتكز منهجهم الفكري الذي قدموه للمسلمين.

ويلاحظ أن القاضي عبد الجبار يؤكد على وجوب التكامل والتعاقد ما بين العقل والجسد والروح، لكي يتمكن الإنسان من أداء دوره بصورة صحيحة في الحياة ولكي يصل إلى السعادة التي ينشدها في الدنيا والآخرة. ويرى القاضي أن الجهل أو الشك يسبب حاجة داخل المتعلم وأن عدم إشباعها يؤدي إلى التوتر وضيق الصدر، لذلك "يستروح العاقل إلى إزالته بطلب البصيرة والكشف".

وقد بينت الدراسة اهتمام القاضي عبد الجبار اهتماماً بالغاً بتنمية الإبداع والمهبة وقد وضع قواعد أساسية تؤدي إلى تنمية الإبداع والمهبة لدى المتعلم مثل رفض التقليد في المعرفة وتحرير التفكير من القيود. واهتم بطرق وتنوع باستخدامها مثل أسلوب التعلم الذاتي وطريقة التكرار والمحاولة والخطأ وطريقة التعلم التعاوني.

التوصيات:

في ضوء نتائج البحث أوصى الباحث بما يلي:

- ١- الأخذ ببعض ما ورد من آراء تربوية ونفسية وتضمينها في المناهج المدرسية والجامعية مثل مادة مدخل إلى التربية وأسس التربية التي تعتبر أحد المواد الإجبارية التي يدرسها طلبة كليات التربية في الجامعات الأردنية.
- ٢- ضرورة التدقيق على الطريقة التدريسية التي وضعها القاضي عبد الجبار لغرس العقيدة الإسلامية، لتدريس مادة التربية الإسلامية ولغرس عقيدة التوحيد في ذهن الطفل.
- ٣- إجراء دراسات مقارنة ما بين الفكر التربوي لدى القاضي عبد الجبار وغيره من العلماء المسلمين مثل الغزالي والجاحظ وغيرهم.

Abstract

Philosophical Foundations of the Educational Ideas of Qāḍī ‘Abdal-Jabbār and their Applications

This study highlights Qāḍī ‘Abdal-Jabbār Al-Hamādhānī’s philosophical principles and their applications in the educational process. An analytical approach has been adopted in this study. Views expressed by ‘Abdal-Jabbār in seven books written by him have been studied. The study highlights the following aspects of his educational ideas:

1. Qāḍī ‘Abdal-Jabbār’s approach to the knowledge of Allah (God) as a mental construct has been elaborated. He believes that knowing Allah (God) can be achieved only through mind and its processes of reasoning. The paper shows its relevance to education as explained by him.
2. Qāḍī ‘Abdal-Jabbār emphasizes a variety of teaching methods like repetition, trial- and- error, self-learning and cooperative learning.
3. The writer, in the end, recommends carrying out studies of the educational thought of Muslim scholars through different ages as he feels that these will yield rich resource in educational insights relevant to our time.
